سلسلة ترجمات الزيتونة (6)
إصدار تجريبي (مارس 2005)

عالمٌ لا "إسرائيل" فيه

A World without Israel

بقلم: جوزيف جوف Josef Joffe

الناشر: فورين بوليسي Foreign Policy (FP)
العدد: يناير – فبراير 2005

العنوان الالكتروني:
http://www.foreignpolicy.com/story/files/story2737.php

عالم لا "إسرائيل" فيه

العنوان الأصلي: A World without Israel

الكاتب: جوزيف جوف Josef Joffe

المصدر: فورين بوليسي Foreign Policy

التاريخ: يناير/فبراير 2005

* * *

عالم لا "إسرائيل" فيه

مقدمة المترجم

هذا المقال منشور في مجلة فورين بوليسي (عدد يناير/فبراير 2005)، وهي من أهم المجلات الأمريكية المتخصصة في الشؤون الخارجية الأمريكية، وكانت قد حازت سنة 2003 على جائزة أفضل مجلة في أمريكا.

وصاحب المقال هو جوزيف جوف Josef Joffe، وهو ناشر صحيفة دي زيت Die Zeit الألمانية، وباحث حائز على رتبة الزمالة في مؤسسة هوفر، كما أنه حائز على الزمالة المميزة في مؤسسة الدراسات الدولية، والمؤسستان كلتاهما تابعتان لجامعة ستامفورد الأميركية.

والرؤية التي يبني عليها الكاتب جدليته هي أن في العالم العربي والإسلامي الكثير من المشاكل والصراعات التي لا دخل لـ "اسرائيل" بها، ولا يمكن تحميلها مسؤولية الاضطرابات والتخلف والديكتاتورية التي تعاني منها المنطقة. والكاتب يخلط الحقائق والأوضاع لدعم فكرته، متجاوزاً:

1- إن حقيقة أن الكيان الإسرائيلي سبب رئيسي للاضطراب وحالة اللااستقرار، لا يلغي ولا يتنافى مع وجود مسببات أخرى للمشاكل والاضطرابات في المنطقة.

2- أن الكيان الإسرائيلي يحتل أرض الشعب الفلسطيني بالقوة، ويحرم الفلسطينيين من العودة إلى أرضهم، ويمارس الظلم وسفك الدماء بشكل يومي مبرمج دون احترام للمبادئ والقيم والأعراف والقوانين الدولية. وهو ما يؤدي بالتأكيد إلى ظهور حالة مقاومة مشروعة تجعل المنطقة والعالم تعيش أجواءها إلى أن يسترد أصحاب الأرض حقوقهم.

3- أن الكيان الإسرائيلي والولايات المتحدة (والقوى الغربية بشكل عام)، دعمت (أو على الأقل سكتت عن) الأنظمة المتسلطة في العالم العربي، وكانت ولا تزال ضد أية انتخابات ديموقراطية شفافة، قد تطيح بالأنظمة الموالية لها، أو يمكن أن تأتي بالبديل الإسلامي. ثم إن حالة التخلف والتشرذم العربي والإسلامي هي أحد ضمانات البقاء للكيان الإسرائيلي، وأحد ضمانات الهيمنة الغربية على المنطقة ومقدراتها.

نص المقال

تصور أن إسرائيل لم تقم يوماً على أرض الواقع، هل كان هذا سيجعل الاختناق الاقتصادي والقمع السياسي الذي يدفع الشبان الفلسطينيين الغاضبين إلى تحويل أنفسهم إلى انتحاريين، يختفيان؟ هل كان الفلسطينيون سيحصلون على دولة مستقلة؟ هل كانت الولايات المتحدة المتحررة من هذا الحلف المرهق ستجد نفسها فجأة محبوبة على امتداد العالم الإسلامي؟ هذه كلها مجرد أمنيات، فبعيداً عن التفكير المتشنج، يمكن أن نرى أن إسرائيل تحمل عدوى التناقض والتنافر المنتشر حولها أكثر من كونها مسبباً له.

منذ الحرب العالمية الثانية، لم تشهد دولة من انقلاب الدوائر عليها بالقسوة التي شهدتها إسرائيل، فإسرائيل التي ظلت حتى العام 1970 ينظر إليها بعين التقدير على أنها دولة "هؤلاء اليهود المقدامين" الذين نـــجوا من جميع النـــزاعات التي مرت بهم، واستطاعوا أن يجعلوا الديمقراطية والصحراء تزهر في جو من العداء للحرية والتقدم؛ أصبحت عرضة للكثير من الانتقادات، وهذه الانتقادات غالباً ما تأتي على وجهين، أولهما نقد ناعم خفيف، يتهم إسرائيل بكل ما يصيب الشرق الأوسط، وبأنها أفسدت سياسة الولايات المتحدة الأميركية الخارجية، وهذه الاتهامات هي

الكليشيهات التي تزخر بها افتتاحيات الدوريات حول العالم، والسموم التي ترشح من الصحافة العربية–الإسلامية. إلا أن الاتجاه النقدي الأقسى الذي بدأ يتبلور مؤخراً، يتناول وجود إسرائيل من أصله، فوفقاً لأحكام هذا الاتجاه، فإن جذور المشاكل في الشرق الأوسط تكمن في وجود إسرائيل نفسها، وليس في تصرفاتها، وبالتالي، فإن هذا النقد يخلص إلى الحكم بموت الدولة (دولة إسرائيل) على اعتبار أن إسرائيل التي أبصرت النور على يد الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي عام 1948، لم تكن سوى خطأ جسيم، مهما بلغت قيمة وعظمة هذه الدولة في تلك الأيام.

وبالنسبة للنقد الخفيف، فإن كنهه مألوف بما فيه الكفاية، فهو يوجه أصابع الاتهام دائماً إلى اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة، الذي تزعم هذه الآراء أنه استطاع أن يربك إدارة بوش بسياسة مؤيدة تأييداً أعمى لإسرائيل، مضرة بالمصالح الوطنية؛ ولطالما نسبت وجهة النظر هذه تاريخياً الكثير من النفوذ إلى اليهود. وخلف هذه التهمة تلوح أخرى، تُتهم المجموعات الوطنية الصغيرة بإقحام نفسها في معمعة السياسة، وخاصة السياسة الخارجية معتبرة أن ذلك عمل غير ديمقراطي إلى حد ما، ولكن دعونا نحصي الطرق التي تناضل من خلالها هذه المجموعات من أجل المصلحة الوطنية: الاتحادات والنقابات تجهد بالمطالبة بتحديد الأسعار

ومكافحة التهرب من الضرائب، والمنظمات الأهلية غير الحكومية تحض على التدخل لنصرة قضايا إنسانية، وفي السنوات الماضية تكتل البولنديون نصرة للتضامن، وتكتل الأميركيون من أصل أفريقي ضد نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، كما تكتل اللاتفيون ضد الاتحاد السوفييتي. وبكلمات أخرى، فإن المعركة الديمقراطية لم تتوقف يوماً عند حد معين.

تهمة أخرى يوجهها النقد الخفيف تكمن في نظرية "جذور المشكلة" على اختلاف أوجُهها. فبما أن الإسرائيليين العنيدين وذوي المراس الصعب، هم المتهمون الأساسيون، فإنه من الواجب معاقبتهم والضغط عليهم للتراجع من أجل السلام: "اضغطوا على إسرائيل"، "اقطعوا المساعدات الاقتصادية والعسكرية عنها"، "قولوا لهم إننا لن نغفر لهم أعمالهم الوحشية"، تلك كانت كليشيهات من العظات الأخلاقية المعروفة لدى الجميع، فلعقود مرت، كان هذا النوع من الهذر هو السائد في مكاتب وزارة الخارجية، إلا أن سيغموند فرويد يذكرنا بأن الهوس قابل للانتشار، وبالتالي، فإن هناك الكثير من الفرضيات الخلاقة من الممكن أن تضاف الى نظرية جذور المشكلة المحبوكة بشكل ممتاز سابقاً. يقول أناتول ليفين Anatol Lievin من مؤسسة وقف كارنيجي للسلام العالمي Carnegie Endowment for International Peace بأن ما يحصل بين

الإسرائيليين والفلسطينيين هو عائق عظيم أمام عملية "الدمقرطة" لأنه يُذكي ناراً أسوأ وأكثر وجوه الرجعية في العروبة والحضارة العربية. وبكلمات أخرى فإن الصراع يدفع باتجاه تشخيص الأسباب وليس العكس، تماماً كما لو كان أحد محاربي الشوارع يصف للشرطي ما حصل قائلاً: "كل الأمر بدأ عندما رد هذا الرجل الضربة!".

الإشكالية في نظرية جذور المشكلة ذات أبعاد ثلاثية: فهي أولاً، تغشي ظلالاً من الضبابية إن لم نقل إنها تقلب الأسباب والمؤثرات، وثانياً، تتجاهل مشاكل لا تحصى لا علاقة لإسرائيل فيها، وثالثاً فهي تغفر للعرب كل زلاّتهم ملقية اللوم على "من تعلمون". وإذا صدّق أحدنا كلام مفتش الأمم المتحدة السابق سكوت ريتر Scott Ritter فإن إسرائيل ستكون مَلومةً على السعي العربي الإسلامي للحصول على أسلحة الدمار الشامل وما ترتب على ذلك من حرب على العراق. فريتر يقول: "طالما أن إسرائيل تمتلك أسلحة دمار شامل، فإنها اختارت حتماً طريق المواجهة، فالعالم العربي والإسلامي اليوم لن يرضى بالقعود والصمت والسماح بهذا الأمر أن يمر، وبالتالي فإنهم سوف يسعون لامتلاك أدوات الردع الخاصة بهم، وقد شاهدنا ذلك في العراق، ليس فقط على هيئة أسلحة ردع نووية،

وإنما أيضاً على شكل أسلحة بيولوجية كان العراقيون يطورونها سعياً منهم لتحقيق التوازن مع التفوق النووي الإسرائيلي".

وهذه النظرية تصطدم بالكثير من الوقائع المربكة، فالعراقيون لم يستخدموا أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكونها ضد المغتصب الإسرائيلي، بل استخدموها ضد إخوانهم المسلمين في إيران خلال الحرب العراقية الإيرانية، وضد مواطنيهم العراقيين حين قصفوا الأكراد في حلبجة عام 1988 بالغازات السامة، ومن غير المعروف أن أحداً من هذين الطرفين كان يطور أسلحة نووية في ذلك الوقت. أما بالنسبة للبرنامج النووي العراقي، فإن بين أيدينا اليوم تقرير دولفر "Duelfer Report" المبني على اعترافات المسؤولين العراقيين الموالين للنظام السابق. والتقرير يخلص إلى القول بأن "إيران كانت المحرك الأساسي في تبني هذه السياسة، إن كل المسؤولين العراقيين كانوا يرون أن إيران هي عدو أساسي في المنطقة، وأن الرغبة في إيجاد توازن مع قدرات إسرائيل، والسعي إلى تحصيل المكانة والنفوذ في العالم العربي كانت أيضاً أموراً مأخوذة بعين الاعتبار في السياسة العراقية، إلا أنها كانت ثانوية".

والآن دعونا ننتقل إلى النقد العنيف، فبعد أن كان الكلام كله منمّقاً، نجد أن لهجة الراوي قد اعترتها نبرة خبيثة، تتهم إسرائيل ليس فقط بأنها جارٌ عنيد صعب المراس، بل أيضاً بأنها متطفل غير مرغوب به، ومع الخوف الذي يعتري كل من يرغب بالتفوّه بهذا الكلام خارج العالم العربي، فإن مؤيدي هذا النوع من النقد في الغرب، تخطّوا هذه المرحلة، واجترأوا على خرق جدار المحرمات، فإذا بنا نرى الكاتب البريطاني أ.ن.ويلسون A.N.Wilson يعلن أنه توصل مرغماً إلى نتيجة مفادها أن إسرائيل من خلال تصرفاتها قد أثبتت أنه لا يحق لها الوجود. وبعد أحداث الحادي عشر من أيلول عام 2001، قال العالم البرازيلي جوزيه أرثر جيانوتي Jose Arthur Giannotti: "علينا أن نتفق على أن التاريخ في الشرق الأوسط كان ليختلف تماماً بغياب دولة إسرائيل، التي فتحت جرحاً بين الإسلام والغرب، هل بالإمكان التخلص من الإرهاب الإسلامي، دون التخلص من هذا الجرح الذي يشكل مصدر التوتر عند الإرهابيين الكامنين؟".

ومن ناحية أخرى، يرى توني جود Tony Judt أستاذ ومدير مؤسسة ريمارك Remarque Institution في جامعة نيويورك، يرى أن فكرة الدولة اليهودية بحد ذاتها مفارقة، وأنها تشبه "المشروع الانفصالي

الذي ساد في أواخر القرن التاسع عشر" وأنه لا مكان لها في هذا العالم المدهش الذي يتجه نحو المثالية الغائية، والتعددية الثقافية والإثنية التي يجمعها مع بعضها بعضاً القانون الدولي. ويضيف أن الوقت حان للتفكير بما لم يكن بالإمكان التفكير به؛ وبالتالي، إلى التخلي عن الدولة اليهودية لصالح دولة ثنائية القومية تضمن وجودها القوة الدولية.

ولو أننا افترضنا أن إسرائيل هي فعلاً مفارقة وخطأ تاريخي، وأنه دون وجودها كان العالم العربي-الإسلامي الممتد من الجزائر إلى مصر، ومن سوريا إلى باكستان لينعم بالسعادة، خاصة وأن الخطيئة الأساسية بإقامة دولة إسرائيل، لم ترتكب، وبالتالي، دعونا نغوص في التاريخ، ونمضي من الماضي إلى الحاضر مدّعين أن بإيدينا عصاً سحرية جعلنا إسرائيل تختفي بحركة واحدة منها.

حضارة الصراعات

دعونا نبدأ من الحرب التي اندلعت عام 1948 بعد إعلان قيام دولة إسرائيل، هل كان العدول عن إقامة هذه الدولة ليقضي على المشكلة الفلسطينية في مهدها؟ ليس تماماً، فسوريا ولبنان ومصر والأردن والعراق، سيرت جيوشها نحو حيفا وتل أبيب لا لتُحرّر فلسطين، بل لتُحكم

سيطرتها عليها، فالاجتياح كان لعبة قوة تنافست فيها الدول المجاورة بنية الحصول على الأرض لأنفسهم. ولو أن العرب انتصروا في تلك الحرب، فإن الدولة الفلسطينية لم يكن ليكتب لها أن ترى النور، ولظلّ هناك الكثير من اللاجئين (ولنتذكر كيف أن أكثر من نصف سكان الكويت هربوا منها بعدما أعلن الديكتاتور العراقي صدام حسين حرب تحرير ذلك البلد عام 1990). فلو أن العرب انتصروا في تلك الحرب واستيقظت الوطنية الفلسطينية كما حدث أواخر الستينات والسبعينات، فلربما كان الفلسطينيون الآن يرسلون الانتحاريين إلى سوريا ومصر وغيرها من البلدان العربية التي شاركت في تلك الحرب.

ودعونا نتخيل أن إسرائيل اختفت في حرب 1967 بدل احتلالها للضفة الغربية وقطاع غزة التي كانت تحت سيطرة الملك الأردني حسين، والرئيس المصري جمال عبد الناصر، فهل كانا ليتنازلا عن ممتلكاتهما للرئيس الفلسطيني ياسر عرفات ويسلموا حيفا وتل أبيب تعبيراً عن حسن النوايا؟ لا أظن ذلك. فالعاهلان كانا أعداء في كل شيء إلا في هذا الموضوع، إذ وحَّدهما كره عرفات (مؤسسة حركة التحرير الوطني الفلسطيني – فتح) والخوف منه، خاصة أنه كان مشتبهاً بتحريضه للعرب

ضد أنظمتهم، وباختصار، فإن "جذور مشكلة" عدم وجود دولة للفلسطينيين كانت لتبقى حتى بغياب إسرائيل.

وأخيراً دعونا نفترض أن من خلال تجربة فكرية أن إسرائيل اختفت من الوجود الآن كيف لهذا التطور أن ينعكس على الباثولوجيا (الأمراض) السياسية في الشرق الأوسط؟ إن الذين يظنون أن القضية الفلسطينية هي في قلب النـــزاع الدائر في الشرق الأوسط، هم وحدهم سوف يتنبئون بمجرى أحداثٍ سعيدٍ لأكثر مناطق العالم اضطراباً، إذا ما اختفت إسرائيل من الوجود؛ إذ لا وجود لصراع واحد محدد في الشرق الأوسط، وهناك خمسة طرق تكشف بأن طالع هذه المنطقة سوف يبقى متعثراً إن لم يكن الأمر أسوأ من ذلك:

1- دول ضد بعضها:

إن إزالة إسرائيل من المعادلة الإقليمية سوف يعزز بالكاد الوئام العربي في المنطقة، إذ إن انسحاب القوى الاستعمارية — فرنسا وبريطانيا – من المنطقة خلف وراءه دولاً عربية فتيّة تسعى إلى إعادة رسم خريطة المنطقة من جديد؛ فمنذ البداية ادّعت سوريا أن لها حقاً في لبنان، وفي

السبعينات وقفت الآلة العسكرية الإسرائيلية وحدها في وجه اجتياح سوريا للأردن بحجة دعم الانتفاضة الفلسطينية. وخلال فترة الخمسينات والستينات، ادعت مصر جمال عبد الناصر أنها تجسد العروبة، فسمحت لنفسها بالتدخل في اليمن في الستينات. وحين خلف أنور السادات سلفه عبد الناصر خاض نزاعات عسكرية متفرقة مع ليبيا في أواخر السبعينات. وفي عام 1976 دخلت سوريا إلى لبنان، ونجحت في السيطرة عليها لخمسة عشرة سنة تالية، كما خاض العراق حربين ضد دولتين إسلاميتين جارتين: إيران عام 1980، والكويت عام 1990، واعتبرت الحرب ضد إيران أطول حروب القرن العشرين التقليدية. ولا علاقة لأي من هذه النزاعات بالصراع الإسرائيلي – الفلسطيني. والحقيقة أن اختفاء إسرائيل سوف يحرر فقط القوة العسكرية التي ستستخدم في مثل هذه المنافسات الداخلية.

2– أديان ضد أخرى:

يخطئ من يعتقد أن الصراع في الشرق الأوسط هو صراع إسلامي يهودي، فمن يمتلك هذا الظن عليه أن يمعن النظر أكثر، وحين يفعل ذلك سوف يرى أربعة عشر عاماً من سفك الدماء على أساس طائفي في لبنان،

وسوف يرى حملة صدام للقضاء على الشيعة في حسابات ما بعد حرب الخليج الأولى، وسوف يلوح له أيضاً المجرزة التي ارتكبها النظام السوري بحق 20.000 من الإخوان المسلمين عام 1982، والعنف الإرهابي ضد الأقباط في مصر في التسعينات، بالإضافة إلى الاضطهاد داخل المذاهب نفسها، كما في المملكة العربية السعودية، حيث يسوق المذهب الوهابي الناس بعصا الحكم والنفوذ، فارضاً مذهبه المتشدد على حياة كل الناس الأقل تديّناً في المملكة.

3- أيديولوجيات ضد أخرى:

ليست الصهيونية الأيديولوجية الوحيدة في المنطقة التي تعج بالأيديولوجيات المتنافسة، فمع أن تياري البعثية نبتا من نفس جذور الفاشية الأوروبية، فإن كلاهما سعى إلى الصدارة في الشرق الأوسط. في حين أن الناصرية رفعت شعار العروبة والاشتراكية في وجه دول الأمة العربية، كما ناهضت الأنظمةُ الملكية (كما في الأردن) الأنظمةَ البعثية والناصرية. أما إيران الخمينية، والسعودية العربية الوهابية، فإنهما يكنّان لبعضهما عداوة حتى الموت. فما علاقة الصراع العربي الإسرائيلي بكل هذه الحقائق؟ لا شيء، باستثناء حماس وهي جيش من المؤمنين الإرهابيين

دعمته إسرائيل في السابق كونه منافساً لمنظمة التحرير الفلسطينية، وها هو الآن يرسل انتحارييه ليفجروا أنفسهم في إسرائيل. ولكن هل ستحلّ الحركة نفسها إذا ما ذهبت دولة إسرائيل؟ أبداً، إن طموح حماس أكبر من إزالة الكيان الصهيوني، فحماس منظمة لا ترضى بأقل من دولة عربية موحدة تخضع لحُكم الله.

4- الرجعية ضد الحداثة:

إن العداوة المشتركة ضد إسرائيل هي الشيء الوحيد الذي يمنع الحداثيين والتقليديين العرب من تمزيق مجتمعاتهم، فالإصوليون يحاربون العلمانية والإصلاحيين من المسلمين، من أجل نشر المساجد وإقامة دولة يرفرف عليها علم الرسول الأخضر. وبالكاد يخفي نضال الطبقات البرجوازية الدنيا وملايين الشبان العاطلين عن العمل ضد شكل الحكم، الذي عادة ما تتركز فيه أدوات الإنتاج في يد الدولة. وبعيداً عن التفكير المتشنج نجد أن إسرائيل تحمل بذور التناقض والتنافر الذي تعاني منه المجتمعات من حولها.

5- أنظمة ضد شعوبها:

إن وجود إسرائيل لا يمكنه أن يفسِّر عمق واتساع رقعة الأنظمة الاستخباراتية التي تحكم في الشرق الأوسط، فباستثناء الأردن والمغرب ودول الخليج، التي يسودها نظام ملكي متنوّر، فإن كل الدول العربية الأخرى بالإضافة إلى إيران وباكستان، ليست سوى أشكال مختلفة من الأنظمة الاستبدادية، ابتداءً بالديكتاتورية المتوارثة في سلالة واحدة في سوريا، وليست انتهاء بالنظام الفاشستي في مصر. فالصراع العالمي في الجزائر خلّف ما يقارب المائة الف قتيل، وليس هناك إشارة إلى إمكانية توقف هذا النزيف البشري، في حين يقال إن ضحايا صدام حسين وصلوا إلى ثلاثمائة ألف قتيل؛ وبعد أن تولى الخميني السلطة عام 1979، فإن إيران لم تتورط فقط في الحرب مع العراق، بل إنها بالكاد استطاعت أن تحتوي الاضطرابات المدنية التي سادت في الثمانينات، في حين أن الباكستان مشروع انفجار ينتظر دوره، أضف إلى ذلك أن الاضطهاد الذي لا يرحم كان الثمن الوحيد لفرض الاستقرار في المنطقة.

مرة أخرى نقول وحدها المخيلة الواسعة تستطيع أن تظن أن إخراج إسرائيل من معادلة الشرق الأوسط سوف ينتج ديمقراطيات حرة

في المنطقة، وربما يَستحسن البعض التفكير بأن جدلية العداوة تصبّ في مصلحة الدكتاتوريات الحاكمة في المنطقة، خاصة في دول الطوق، مثل سوريا ومصر، إذ إن الأنظمة في هذه البلدان تتذرع بالخطر الصهيوني من أجل ممارسة أعلى درجات القمع ضد معارضيها، ولكن هل يمكن لأحد أن يفسر كيف يمكن أن ينطبق هذا الأمر على الجزائر البعيدة؟ أو على النظام العجيب الذي يختصره شخص الرئيس في ليبيا؟ أو في دولة اللصوص الأتقياء في المملكة العربية السعودية؟ أو في الحكم الاستبدادي الذي يقيمه رجال الدين في إيران؟ أو كيف يمكن تفسير فشل الديمقراطية في التجذر في الباكستان؟ وهل تسببت إسرائيل في الانقلاب الذي أدى إلى قيام جمهورية الرعب في العراق؟ وإذا كانت الأردن التي تملك أطول الحدود مع إسرائيل تحتمل حكماً ملكياً فلماذا لا تحتمله سوريا؟

إن هذه الدول لن تقوم بأي من هذه الخطوات، حتى تظل تلقي بلائمة تعثر الديمقراطية والتطور في العالم العربي على أعتاب إسرائيل والدولة اليهودية، إسرائيل هي ذريعة وليست المسبب، وبالتالي، فإن إزالتها لن تشفي جروح العالم العربي والإسلامي التي سببها لنفسه بنفسه، ولا نظرية "قتل الدولة" أو تحويلها إلى دولة ثنائية القومية سوف ينفع في

"حضارة الصراعات" التي تتسم بها الثقافة السياسية العربية. فالصراع المميت بين الإسرائيليين والفلسطينيين سوف يتحول إلى صراع داخلي.

عدوّي.. نفسي

هل يمكن لأحد أن يدّعي وهو مرتاح الضمير أن كل هذه الاضطرابات التي تسود العالم العربي سوف تزول إذا ما اختفت دولة إسرائيل؟ تقريران صدرا عن الأمم المتحدة حول "التنمية الإنسانية في العالم العربي" كتبهما خبراء عرب يجيبان بالنفي. وهذا الركود وغياب الأمل لهما ثلاثة أسباب، أولها غياب الحرية، فالأمم المتحدة تذكر في تقاريرها، استمرار الأوتوقراطية المطلقة، والانتخابات المزورة، وتولي السلطات التنفيذية مهام السلطات القضائية، بالإضافة إلى القيود على المجتمع المدني، أمّا حرية التعبير وتأسيس الجمعيات، فهي محدودة جداً. أما السبب الثاني فهو قلة المعرفة، إذ أن هناك 65 مليون راشد أمي، وما يقارب العشرة ملايين طفل لم يذهبوا أبداً إلى المدارس. وبالتالي فإن العالم العربي يتعثر بعيداً أكثر فأكثر عن عالم الأبحاث العلمية والتكنولوجيا. وثالث الأسباب أن مشاركة المرأة في الحياة السياسية والاقتصادية في العالم العربي هي الأدنى

مستوى في العالم كله، وبالتالي فإن النمو الاقتصادي سوف يبقى متعثراً ومعوقاً طالما أن نصف قدرات السكان شبه معطلة.

هل ستختفي كل هذه الأمور باختفاء الإهانة الغربية اليهودية للكبرياء العربي المتمثلة بقيام دولة إسرائيل؟ هل سيختفي ملايين العاطلين عن العمل (الذين يشكلون بارود مدافع الإرهابيين) في ظل حكم الحزب الواحد، وفي ظل الفساد وفي ظل الاقتصادات المنغلقة على نفسها؟ يمكن الإجابة بنعم فقط حين نتبنّى تفسيراً واحداً لكل ما يحدث، بل أسوأ من ذلك، حين نتبنّى عداوة معينة تجاه الدولة اليهودية ورفضها أن تتصرف مثل السويد (وهل كانت السويد لتبقى نفسها لو أنها كانت في الشرق الأوسط)؟

وأخيراً، فإن أكثر الأسئلة شعبية هو السؤال التالي: هل كان العالم العربي ليكره الولايات المتحدة أقل مما هي عليه الحال اليوم لو أن إسرائيل اختفت من الوجود؟ كما كل الأسئلة السابقة، فإن هذا السؤال أيضاً يخضع للأدلة الافتراضية. فبداية، مقولة أن خمسة ملايين يهودي هم المسؤولون الوحيدون عن إثارة غضبة بليون مسلم لا يمكن أن يكون جدياً. ومن ناحية أخرى، فإن كره العرب والمسلمين للولايات المتحدة

الأميركية سبق احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة، وهنا يجب أن نتذكر مشاعر الاشمئزاز التي خلفتها الولايات المتحدة عندما دعمت الانقلاب الذي أعاد الشاه الى الحكم عام 1953، وتدخلها في لبنان عام 1958؛ فبعد أن رحلت بريطانيا وفرنسا عن الشرق الأوسط، أصبحت الولايات المتحدة الاميركية هي القوة المسيطرة، والهدف الأول، ناهيك عن كون أشرس حملات العداء الشعبي للأمركة تنطلق من البلدان التي تعتبر أنظمتها حليفة الولايات المتحدة الأميركية في الشرق الأوسط ونعني بها السعودية ومصر. فهل إن هذا الوضع سببه إسرائيل أم أن سببه إلهاء العقول الطائشة بمعارك جانبية ولفت انتباه الشعوب عن اعتماد أنظمتها بالكامل على "الشيطان الأكبر"؟

ولنأخذ مثالاً إعلان القاهرة ضد "السيطرة الأميركية" الذي وقع عليه أربعمائة وفد من الشرق الأوسط والغرب في ديسمبر 2002. فلائحة الاتهام الطويلة تذكر فلسطين بشكل هامشي، في حين أن التنديد الأساسي المعبَّر عنه بأساليب مختلفة يصبّ على احتكار الولايات المتحدة للسلطة في "إطار عولمة رأسمالية" من أجل استعادة "الاستعمار" ومن أجل "منع قيام قوى يمكنها أن تعدل الموازين باتجاه تعددية قطبية"، باختصار،

فإن أميركا العولمة هي سبب البلاء في العالم العربي، وتأتي إسرائيل بعدها في الدرجة الثانية.

ومن المثير للسخرية، أن أحد الموقعين الأساسيين على تقرير الأمم المتحدة حول التنمية الإنسانية في العالم العربي لعام 2002، هو نادر فرجاني وهو عربي، ولذلك، حتى هؤلاء الذين يعترفون بالفشل الداخلي في العالم العربي ينتهي بهم الأمر الى توجيه أصابع الاتهام إلى "الآخر"، وبما أن الاتهامات عظيمة، فإن التخلي عن إسرائيل، لن يعفي الولايات المتحدة ويمنحها الغفران. وربما من حق إيران أن تصف الولايات المتحدة الأميركية بالشيطان الأكبر، وإسرائيل بالشيطان الأصغر الذي يخدم مصالح الولايات المتحدة الأميركية. إن ما يغضب أعداء أميركا هو سياستها وطريقة تدخلها في الشرق الأوسط، فيما يتعلق النفط، والإرهاب، وأسلحة الدمار الشامل. وهذا ما دعا أسامة بن لادن إلى ربط نفسه بفلسطين، بشكل متأخر، ودعا الأميركان "بالصليبيين الجدد"، فيما سمّى اليهود "أدواتهم الاستعمارية".

لم أتوخّ من كل ما ذكرته أن أؤيد استمرار احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة، أو أن أجد عذراً لما يسببه هذا الاحتلال من أذىً شديد للفلسطينيين تصيب شظاياه روح إسرائيل نفسها، ولكنني أقول إن مصدر الرعب الحقيقي للعرب هو الغرب الذي أراه رمزاً محسوساً لتعاسة العرب،

والذي يثير ما يصفه الكاتب العربي فؤاد العجمي "غضب العرب" ولكن السؤال المحيّر هو لماذا يؤمن الكثير من الغربيين ومنهم من وقّع على إعلان القاهرة بعكس ذلك؟

هل ما نراه هو معاداة للسامية كما يسرع الكثير من اليهود الى الاستنتاج؟ لا، إلا أن رفض الاعتراف بشرعية إسرائيل يتقاطع في الكثير من وجوهه مع هذه العقيدة الكريهة، إذ يُنظر إلى اليهود على أنهم أصحاب القدرة المطلقة في كل الأوقات، وبالتالي فهم سبب كل الشرور في العالم. اليوم تجد إسرائيل نفسها في وضع لا تحسد عليه، فهي إما متهمة بكونها يد الولايات المتحدة في المنطقة، أو بأنها تتلاعب بالقوة الأميركية، وبالتالي، فإن أصوات الانتقاد الخفيف تقول: لو أن إسرائيل أكثر عقلانية.. فيما يطالب الأكثر تشدداً الولايات المتحدة الأميركية بسحب البساط من تحت أقدام إسرائيل، وبالتالي يمكن تطويعها بحرمانها مما تتمتع به من قدرات، أما الذين يجنحون إلى النقد العنيف فيحلمون بالخلاص الذي ستظهر بشائره باختفاء إسرائيل من الوجود.

تحضرني هنا نكتة، خلال "حرب الاستقلال" [حرب 1948]، كان هناك يهوديان مذعوران يقبعان في أحد الخنادق، وحين اشتد أوار

الحرب: أمسك أحدهما بخناق الآخر صارخاً: ما دامت بريطانيا تستطيع أن تعطينا دولة ليست ملكها، فلماذا لم يعطونا سويسرا؟ في النهاية فإن إسرائيل ليست إلا مجرد قطعة أرض في أكثر المناطق تلوثاً، والتنظيف لم يبدأ بعد.